آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية
بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

دبي - ص.ب. ٥٥١٥٦
هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+
فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+
دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@almajidcenter.org
الموقع الإلكتروني: www.almajidcenter.org

السنة الثامنة عشرة : العدد الثاني والسبعون ـ محرم ١٤٣٢ هـ ـ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠١٠ م

رقم التسجيل الدولي للمجلة

ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

المجلة مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ٣٤٩٣٧٨

هيئة التحرير

مدير التحرير

د. عز الدين بن زغيبة

سكرتير التحرير

د. يونس قدوري الكبيسي

هيئة التحرير

أ.د. حاتم صالح الضامن

د. محمد أحمد القرشي

د. أسماء أحمد سالم العويس

د. نعيمة محمد يحيى عبدالله

الاشتراك السنوي

	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهم	١٠٠ درهم
الأفراد	٧٠ درهماً	١٠٠ درهم
الطلاب	٤٠ درهماً	٤٠ درهماً

المقالات المنشورة على صفحات المجلة تعبر عن آراء كاتبيها ولاتمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو المركز الذي تصدر عنه

يخضع ترتيب المقالات لأمور فنية

الفهـــــرس

الإفتتاحية

المكتبة الوطنية بإندونيسيا – رصيد تراثي مغمور

مدير التحرير ٤

المقالات

علم العقيدة الإسلامية عوامل النشأة وتطور التدوين

د. عثمان جمعة ضميرية ٦

العلم العربي وكيف عجّل بظهور عصر النهضة الأوروبية

شهادة من أهلها

الجيولوجي د. مصطفى يعقوب عبد النبي ٣٢

جمال الشعر العربي في مدينة الرسول ﷺ

د. قديرة سليم ٥٨

الدرس الصّوتي عند القدماء والمحدثين

د. كل محمد باسل ٧٧

علي أحمد باكثير ونسيم حجازي

(دراسة مقارنة في ضوء الروايتين: «وا إسلاماه»

و«الصخرة الأخيرة»)

د. الحافظ عبد القدير ١٠٤

مقالات علمية

شذرات علمية في القرآن الكريم

هل الشمس تجري أم تدور؟

د. يعرب قحطان عبد الرحمن الدوري ١٢٤

دراسة النصوص

ما فُقِدَ مِن التَّوَارِيخ الفاسيِّة

نحو التأصيل لنشأة التدوين التاريخي بالمغرب الأقصى

د. عبد السلام الجعماطي ١٣٣

الخزانة الزيانية القندوسية ومخطوطات التصوّف بها

أ. د. عبد القادر بوباية ١٥٣

تاريخ خزائن الكتب في المغرب الأقصى وذكر بعض

فهارسها

د. محمد سعيد حنشي ١٦٨

الملخصات ١٨٦

الدرس الصّوتي عند القدماء والمحدثين

د. كل محمد باسل
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية
الجامعة الإسلامية العالمية – باكستان

المدخل:

جاء هذا البحث نتيجة لتدريس علم الأصوات النطقي الذي أدى بصاحب البحث أن يتتبع ما قاله القدماء من المسلمين مقارناً بما قاله المحدثون من حيث المنهج والتفكير، وقد يكون جديداً في موضوعه، وأصيلاً في نتائجه، ولا أدعي ذلك كوني صاحب هذا البحث المتواضع، ولكن طرافة موضوعه، وجدة أفكاره، ودقة تطبيقاته ساقت لمثل هذا الادعاء.

كما جاء مؤصلاً للنظرية العربية في علم الأصوات: phonetics التي تطورت فيما بعد للتخصص في علم الصوت الوظيفي: التشكيلي phonology، لذلك فالصوت اللغوي في حياة التراث ليس جديداً، ولكنه يفسر ويشير أصلا إلى المكونات التفكيرية الصوتية عند هؤلاء القدماء.

فمهمة هذا البحث إذن هو ضم هذه المفاهيم المختلفة في وحدة فنية لغوية ألا وهي وحدة صوتية، وكذلك مجموعة من النتائج والكشوف التي أرجو متفائلاً أن تضيف شيئاً ما للمكتبة الصوتية خاصة، والمكتبة العربية على وجه العموم.

وإن إلتماس النظريات الصوتية المعقدة في رحاب هؤلاء العمالقة مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي وكتابه العين، وسيبويه وكتابه الكتاب، وابن جني وكتابه سر صناعة الإعراب، مما يحتاج إلى الصبر والأناة، واستكناه فصائل هذا الملحظ الدقيق مما يدعو إلى الترصد والتصدي والاستنتاج، فالصوتيات علم سبق إليه علماء العربية فيما ثبت بالبحث، وتناوله الأروبيون بالنقد والتمحيص في ضوء أجهزة العلم المتطورة، وكان حصيلة هذا السبق وهذا التناول المزيد من الدراسات المنهجية المتقدمة التي مازال للبحث فيها فضل في

المنهج القديم وهو التجربة الذاتية ويعبرون عنه «بالذوق» أي ذوق الحروف بتجربة نطقها والتأمل الذاتي في موضع تكَوُّن كل حرف وصفاته وهيئات أعضاء الجهاز الصوت معه، وفي ذلك يقول الليث حاكيا عن الخليل بن أحمد: هذا المنهج «وإنما كان ذَواقُه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يُظهِر الحرف (المراد ذوقُه) نحو: أب، وأت، وأغ ... فوجد العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها أول الكتاب.

فالذي أريد أن أبين هنا هو ضرورة الاحتفاظ بهذا المنهج وعدم التفريط فيه أو الإزراء عليه، أولاً لأنه متاح دائما على المستوى الفردي والعام، وهذا بدوره يتيح فرصَ تنويع التذوق للتوصل إلى النطق الصحيح، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الاحتكام إليه هو أقرب سبيل إلى فهم تعبيرات القدماء ومقرراتهم، وأنا أتخذ في دراستي هذه منهج الذوق هذا مع الحرص على دراسة مقررات قدمائنا دراسة تمحيص. أما المنهج الحديث الذي اتبعه المحدثون في دراسة الأصوات، فهو قائم على استخدام الأجهزة الدقيقة في دراسة الأصوات بدلاً من الاعتماد على الإحساس الشخصي المعرض للالتباس، وعدَّ بعضهم هذه الدراسات فرعاً من الدراسة اللغوية باسم علم الأصوات التجريبي، ولكن الدقيق أنه هو علم الأصوات هذا إذا استعان بالأجهزة الصناعية.

ولهذا لمستُ هذا الموضع ورأيت أن أجمع لطلاب المرحلة الجامعية ما لا غنى لهم عنه من هذه المقارنة بين هؤلاء الثلاثة في عهد مبكر.

فمن هنا بدأت بمنهج الخليل لدراسة الأصوات المبني على الذوق الصوتي، ثم تلميذه سيبويه الذي ركز كثيرا على صفات الحروف المركبة، وإبراز مواطن الاتفاق ومواضع الاختلاف بينهما، مثلاً ترتيب الأصوات خالف سيبويه شيخه فيه، إذ بدأ بالهمزة والألف والهاء، ثم قدم الغين على الخاء وهكذا...

ثم ابن جني الذي أحيا الفكر الصوتي، وتجاوز مرحلة البناء والتأسيس إلى مرحلة التأصيل والنظرية، وأسأل الله العلى القدير أن يوفقني لما يحبه ويرضاه. ويجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. آمين.

الخليل ومنهجه الصوتي:

لا شك أن فضل السبق في مجال دراسة الأصوات يعود إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولا سبيل إلى إنكار هذا الفضل والجهد، والذي يرجع ثانياً في لفت أنظار الباحثين من العرب والعجم إلى كثير من الخصائص الصوتية في اللغة العربية وإلى المبادئ التي سار عليها غيره من القدماء والمحدثين، ولهذا يقول أستاذنا الدكتور المخزومي: «أن الخليل أول من التفت إلى صلة الدرس الصوتي بالدراسات اللغوية الصرفية، والنحوية، ولذلك كان للدراسة الصوتية من عنايته نصيب كبير، فقد أعاد النظر في ترتيب الأصوات القديمية، الذي لم يكن مبنياً على أساس منطقي، ولا على أساس لغوي، فرتبها بحسب المخارج في الفم، وكان

ذلك فتحاً جديداً، لأنه كان منطلقاً إلى معرفة خصائص الحروف وصفاتها»[١].

لم تكن هذه الأولية اعتباطية، ولا الحكم بها مفاجئاً، فهما يصدران عن رأي رصين لأن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥ هـ) هو أول من وضع الصوت اللغوي موضع تطبيق فني في دراسته اللغوية التي انتظمها كتابه الفريد (العين) بل هو أول من جعل الصوت اللغوي أساس اللغة المعجمي، فكان بذلك الرائد والمؤسس.

لا أريد التحدث عن أهمية كتاب العين في حياة الدرس اللغوي ولكن أود الإشارة أن كتاب العين ذو شقين: الأول المقدمة، والثاني الكتاب بمادته اللغوية وتصريفاته الإحصائية المبتكرة التي اشتملت على المهمل والمستعمل في لغة العرب.

والذي يعنينا في مدرسة الخليل الصوتية مواكبة هذه المقدمة في منهجيتها لتبويب الكتاب، وبيان طريقته في الاستقراء، وإبداعه في الاحصاء، ورأيه في الاستنباط ومسلكية التصنيف الجديد، والأهم الذي نصب إليه «إن مقدمة العين على إيجازها؛ أول مادة في علم الأصوات دلت على أصالة علم الخليل، وأنه صاحب هذا العلم ورائده الأول»[٢].

يبدأ الخليل المقدمة بالصوت اللغوي عند السطر الأول بقوله: «هذا ما ألفه الخيل بن أحمد البصري من حروف: أ . ب .ت.ث...»[٣].

وأضاف أنه لم يمكنه «أن يبتدىء التأليف من أول: أ، ب، ت، ث، وهو الألف، لأن الألف حرف معتل، فلما فاته الحرف الأول كره أن يبتدىء بالثاني - وهو الباء - إلا بعد حجة واستقصاء النظر، فدبّر ونظر إلى الحروف كلها، وذاقها فوجد مخرج الكلام كله من الحلق، فصيّر أولاها بالابتداء أدخل حرف في الحلق»[٤].

ومعنى هذا أن الخليل قد أحاط بالترتيب (الألفبائي) من عهد مبكر، ولم يشأ أن يبتديء به مع اهتدائه إليه، لأن أول حرف في هذا النظام حرف معتل، ولا معنى أن يبتدىء بما يليه وهو الباء لأنه ترجيح بلا مرجح، وتقديم دون أساس، فذاق الحروف تجريبياً، فرأى أولاها بالابتداء حروف الحلق، وذاقها مرة أخرى، فرأى (العين) أدخل حرف منها في الحلق، بل في أقصى الحلق.

قال ابن كيسان: (ت :٢٩٩ هـ) سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال: «لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة لا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء، فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف»[٥].

وإذا صح ما نقله ابن كيسان، وستجد في البحث ما يتعارض معه نوعاً ما - فالخليل يعتبر الهمزة والألف في الحيز الأول لأصوات حروف المعجم، ولكنه ينتقل إلى الحيز الثاني فيختار الصوت الأنصع بتذوقه للحرف من مخرجه

الصوتي، وهو يوضح طريقته المبدعة بذاك، فيجرد من نفسه معنياً يتكلم عنه، فيقول: «وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف نحو: إب، إت، إع، إغ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى آخرها وهو الميم»[٦].

ومعنى هذا أنه سار مع الحروف مسيرة مختبرية استقرائية، ابتداء من أقصى الحلق، فالحلق، ومروراً بفضائه، فالأسنان، وانتهاء بالشفة فالميم عندها، لأن الميم أرفع حروف الشفة.

وهذا يدل على ذائقة حسية فريدة، وصبر عنيف على الاستنتاج، حتى توصل إلى ما توصل إليه ابتداعاً وابتكاراً، دون الاستعانة بأي جهاز علمي، إذ لا جهاز آنذاك، وهو مالم يثبت العلم التشريحي الحديث بكل أجهزته الدقيقة، ومختبراته الضخمة خلافاً له فيما يبدو إلا يسيراً[٧].

إن الخليل في ذائقته الصوتية هذه، قد قلب حروف العربية، فوضعها في منازل معينة ضمن مخارج صوتية معينة بحسب مدارج مقدرة من أقصى الحلق حتى إطباق الشفة في الميم.

واتضح أن الخليل رحمه الله تعالى قد صنف هذه المخارج إلى عشرة أصناف كالآتي:

١ – ع، ح، هـ، خ، غ.

٢ – ق، ك.

٣ – ج، ش، ض.

٤ – ص، س، ز.

٥ – ط، د، ت.

٦ – ظ، ث، ذ.

٧ – ز، ل، ن.

٨ – ف، ب، م.

٩ – و، ا، ي.

١٠ – همزة[٨].

ولم يكتف الخليل بهذا التقسيم الفيزولوجي الدقيق بحسب تذوقه الخاص، بل نصّ على تسمية كل قسم من هذه الأقسام، وأفاد اللغات العالمية جمعاء، بأصل من الأصول الأولى في الاصطلاحات الصوتية دون أن يسبقه إلى ذلك سابق، بل عوّل عليه فيه كل لاحق.

لقد حدد الخليل كل صنف من أصناف الحروف المعجمية على بنية صوتية متميزة، تحسها كياناً مستقلاً، وتتذوقها قاعدة صلبة، وعلل ذلك على أساس صوتي متكامل، ووعي بأبعاد هذا الأساس، فكوّن بذلك نظاماً فريداً غير قابل للرد إذ جاء فيه بضرس قاطع لا يختلف به إثنان، وسيّر ذلك مسيرة نابضة بالحياة لا يلحقها الهرم، ولا تعوزها النضارة، فهي غضة طرية في كل حين، قال الخليل:

فالعين والحاء والغين والخاء حلقية، لأن مبدأها من الحلق.

والقاف والكاف لهويتان، لأن مبدأها من اللهاة.

والجيم والشين والضاد شجرية، لأن مبدأها من شجر الفم.

والصاد والسين والزاء أسلية، لأن مبدأها من أسلة اللسان.

والطاء والتاء والدال نطعية، لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى.

والظاء والذال والثاء لثوية، لأن مبدأها من اللثة.

والراء واللام والنون ذلقية، لأن مبدأها من ذلق اللسان.

والفاء والباء والميم شفوية، لأن مبدأها من الشفة.

والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد، لأنها لا يتعلق بها شيء[٩].

إن هذه التسميات التشخيصية قد نهضت بكيان كل صوت وعادت به إلى نقطة انطلاقه، واهتداء الخليل إليها بذهنه المتوهج فطنة وذكاءً، دون مثال يحتذيه عند من سبقه من علماء العربية كنصر بن عاصم الليثي وأبي عمرو بن العلاء لدليل ناصع على موسوعية فذة، وعبقرية لا تقاس بالأشباه، كيف لا وبداية إفاضاته الصوتية مبكرة ومبتكرة.

ختم الخليل هذه المقدمة بما بدأه من ملحظ صوتي ليس غير، حيث يقول: «بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين، وهو أقصى الحروف ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب الواضح والغريب، وبدأنا الأبنية بالمضاعف لأنه أخف على اللسان، وأقرب مأخذاً للمتفهم»[١٠]. ولمّا كانت هذه المقدمة مشتملة على الإفاضة الصوتية الأولى عند العرب، فإننا نشير إلى بعض ملامحها بإيجاز وتحديد:

١ - لقد أدرك الخليل بفطرته الصافية، وحسه المتوقد، أهمية الصوت اللغوي في الدراسات اللغوية المتخصصة، فأشار إلى أبعادها من ينابيعها الأولى، فوضع يده على الأصول في انطلاق الأصوات من مخارجها الدقيقة، وأفرغ جهده الدؤوب في التماس التسميات للمسميّات فطبق بها المفصل، وتمكن من استنباط طائفة صالحة من الأسرار الصوتية من هذا الخلال، لذلك فقد كان صحيحاً ما توصل إليه محققا العين أن في المقدمة منه «بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلا بعد قرون عدة من عصر الخليل»[١١].

فقد استعمل الخليل كلمة (حر) للدلالة على إرادة (صوت) منها، فكانت الأصوات عنده هي: الحروف الذلق، الحروف الشفوية، حروف الحلق، حروف أقصى الحلق، الحروف الصحاح، الحروف الصم، حروف الجوف، حروف اللين، حروف مابين عكدة اللسان، الحروف اللهوية، الحروف الشجرية، الحروف الأسلية، الحروف النّطعية، الحروف اللثوية... إلخ[١٢].

وهو يريد بذلك، أصوات الذلاقة، وأصوات الشفة، وأصوات الحلق، وأصوات أسلة اللسان.. الخ.

ولا يكتفي بهذا حتى يسمي هذه الأصوات بالإضافة إلى مخارجها ومدارجها، ناظراً إلى هيئة المخرج من المدرج، وما يصطدم بها من أجهزة النطق أو يتجاوزها باندفاع الهواء، فيصفها في مثل النحو الآتي:

فمنها ما يخرج من الجوف وليس لها حيّز تنسب إليه سواه، ومنها ما يقع في مدرجة من مدارج اللسان، وما يقع في مدرجة من مدارج الحلق، وما يقع من مدرج اللهاة، وما هي هوائية، أي أنها في الهواء كالألف اللينة والواو والياء.

٢ - يبتدع الخليل في هذه المقدمة أمراً ذا أهمية قصوى في حياة الأصوات، فيصنع - وبدقة متناهية - مخططاً شاملاً لمخرج كل صوت، ويقارن بين بعض الأصوات، فيضعها في حيّز متميز عن حيّز الأصوات الأخرى، ويعطي بعض الخصائص المفرقة لصوت عن صوت، ويعالج إلحاق بعض الأصوات ببعض المخارج دون سواها، فتقف عند العلة والسبب، وتستظهر العلة التي تخفى ولا تكاد تبين، يقول الخليل في هذا التخطيط:

»فاقصى الحروف كلها العين ثم الحاء، ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين. ثم الهاء، ولولا هتة في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف في حيّز واحد بعضها أرفع من بعض، ثم الخاء والغين في حيّز واحد كلها حلقية .

ثم القاف والكاف لهويتان، والكاف أرفع.

ثم الجيم والشين والضاد في حيّز واحد.

ثم الصاد والسين والزاء في حيّز واحد.

ثم الطاء والدال والتاء في حيّز احد.

ثم الظاء والذال والثاء في حيّز واحد.

ثم الراء واللام والنون في حيّز واحد.

ثم الفاء والباء والميم في حيّز واحد.

ثم الألف والواو والياء في حيّز واحد.

والهمزة في الهواء لم يكن لها حيّز تنسب إليه[١٣]. وأقف عند الهمزة، فهي مختلف فيها، ففي الوقت الذي لا يوجد لها حيّز عند الخليل، إلا فيما نسبه إليه ابن كيسان فيما سبق، نجد سيبويه يبتدىء بها، ويعتبرها من حروف أقصى الحلق[١٤]. في حين يعتبرها ابن جني أول الحروف مخرجاً، ويبتدىء بها[١٥]. بينما يعدّها الخليل هوائية منبعثة من الرئتين، وقد يوافقه ابن الجزري لأنه يعتبرها صوتاً مرققاً، سلس النطق، لا مبالغة في تحقيقه[١٦].

والحق أن الهمزة صوت مهموس غير مجهور، وقد ذهب دانيال جونز D. Joenes فيما بين ذلك إلى أنه صوت ليس بالمجهور، ولا هو بالمهموس، وإنما هو حالة بين حالتين.

وذهب هفنر R.M.Heffner إلى أنه صوت مهموس دائماً، ويبدو أن لا تعارض بين الرأيين، فكلاهما قد نفى عن الهمزة صفة الجهر، ولكن كلاً منهما أصدر حكمه بناء على نظرة إلى الحنجرة تختلف عن نظر الآخر، فجونز قد اعتبر أن للحنجرة ثلاثة أوضاع: الاحتباس، الانفتاح دون ذبذبة، الانفتاح مع الذبذبة، وبذلك تكون الهمزة صوتاً لا هو بالمجهور ولا بالمهموس.

أما هفنر فقد اعتبر أن للحنجرة وظيفتين هما: ذبذبة الأوتار الصوتية ؛ وهي صفة الجهر، وعدم ذبذبتها وهي صفة الهمس، ويدخل في حالة عدم الذبذبة احتباس في الحنجرة أو

انطلاق فيها في بقية المهموسات، على أن من المسلم به لدى كل منهما: ان الهمزة عبارة عن احتباس في الحنجرة[١٧].

إن هذا العرض إنما تم لجونز وهفنر بعد تقدم العلم الفيزولوجي الذي أعانهما على فهم جهاز الحنجرة بتفصيلات ذبذبته وعدمها، ومع هذا فقد اختلفا من وجه في الهمزة، أما الخليل فقد عينها حسياً بذاته دون الاستعانة بخبرة تشريحية معقدة، وانبعاثها من الرئتين دون حيز تنسب إليه لا يضير معرفته الدقيقة بجهة انطلاقها واصطدامها وخرووجها من فضاء الفم، إذا كان العلم الحديث يميل إلى رأي سيبويه في الموضوع على فرض أن الخليل لم يعتبرها أول الأصوات، فسيبويه في الموضوع تلميذ الخليل وابنه حملة علمه، فالعائدية على الخليل في كلتا الحالتين، وهذا ما يقرب ما نسبه ابن كيسان إلى الخليل في شأن الهمزة، فيبدو لنا أنه لم يبدأ بها لأن العين أنصح منها ليس غير .

٣ - في هذه المقدمة: إشارات صوتية، وإشاررات لغوية، وقد يدخل الملحظ الصوتي ضمن الملحظ اللغوي كما فعل الخليل هذا لدى حديثه عن ألف الخماسي باعتبارها ليست أصلية فقال:

«أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً سلماً للّسان إلى حرف البناء لأن اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل»[١٨].

لقد كان بإمكان الخليل التصريح بأن هذه الألف من حروف الزيادة، ولكنه لم يفعل، بل أراد وهو معيب بهذه الإرادة، أنها وسيلة لإخراج الصوت، فكأن أي صوت لا يمكن للمعرب أن ينطقه، ولا أن يأخذ الصوت مادته وصفته إلا بعد اعتماده على صوت الألف الأولى قبله، ومن أجل ذلك دعاها عماداً أو سلّما، كما أشار إلى أن إخراج الصوت، وهو ساكن بصفته: محتاج إلى وسيلة إخراجه، لأن اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف، وكانت هذه الوسيلة هي ألف الوصل[١٩].

والخليل يراعي هذا التمازج الصوتي في اللغة فيحكم أن الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف. حرف يبتدأ به، وحرف يحشى به الكلمة، وحرف يوقف عليه، فهذه ثلاثة أحرف، فإن صيرت الثنائي مثل: قد، هل، لو، أسماً أدخلت عليه التشديد فقلت: هذه لوّ مكتوبة، وهذه قد حسنة الكتبة، زدت واواً على واو، ودالاً على دال، ثم أدغمت وشدّدت. فالتشديد علامة الإدغام، والحرف الثالث[٢٠].

إن هذا الاهتمام السليم في ربط اللغة بالصوت، واعتبار الصوت امتداداً للبنية التركيبة، وأصلاً للأفكار المنطورة في اللغة، هو الذي توصل إليه بعد قرون عدة الأستاذ اللغوي فرديناند دي سوسير في أن اللغة فكرة منظمة مقرونة بالصوت من خلال تأمل عنصرين يشتركان في تأدية اللغة لوظيفتها، وهما: الأفكار والأصوات من خلال الربط بينهما كما صنع الخليل.

يقول دي سوسير: «إن المادة الصوتية

ليست أكثر ثبوتاً، ولا أشد تحديداً من الفكر: وهي ليست قالباً يصب فيه الفكر بالضرورة، بل هي مادة مرنة تنقسم في كل حالة إلى أجزاء متميزة لتوفر الدوال significes التي يحتاج إليها الفكر. وبذلك يمكن أن نتصور الحقيقة اللغوية في مجملها على أنها سلسلة من التقسيمات المتجاورة التي حددت على مستويين: المستوى غير المحدد للأفكار المكدسة، ومستوى الأصوات.

إن الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر والصوت، في ظروف تؤدي بالضرورة إلى التمييز المتبادل لوحدات الفكر والصوت»[٢١].

إن هذا المنحنى من التخطيط الصوتي هو الذي يرمي إليه الخليل في مقدمة العين ليخلص إلى صلة التفاعل الحقيقي بين الأفكار والأصوات، بل أنه يحصر ما في كتاب العين من لغة وتصريف واشتقاق بمنطق تذوقه لأصوات حروف المعجم «فإذا سئلت عن كلمة وأردت أن تعرف موضعها، فانظر إلى حروف الكلمة، فمهما وجدت منها واحداً في الكتاب المقدم (يعني مقدمة العين) فهو ذلك الكتاب (يعني كتاب العين) [٢٢].

فهو يرى في اللغة امتداداً طبيعاً للأصوات أولاً فيربطها بها ارتباط الأصل بالفرع، ونعني بذلك ربط الأصوات أصلاً، باللغة باعتبارها متفرعة عن الأصوات.

٤ - ولعل أهم ما توصل إليه الخليل في علم الأصوات حصره للمعجم العربي بأبعاد صوتية فضلاً عن وصف الأصوات منفردة ومجتمعة منضمّة إلى سواها. وإني ليمتلكني العجب حينما أجده يضع حداً جديداً، ومعياراً فنياً متوازناً، للكلمات العربية باشتمالها على الحروف الذلق والشفوية؛ وللكلمات الأعجمية التي لا تتشمل على واحد من حروف الذلاقة والشفة.

هذا المقياس الفني الصوتي لدى الخليل لم يخطىء ولا مرة واحدة حتى في كلمة واحدة، فيما له من مقياس ما أكلمه.

يقول الخليل: إن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذلق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب، لأنك لست واجداً من يسمع من كلام العرب بكلمة واحدة رباعية أو خماسية إلاّ وفيها من حروف الذلق أو الشفوية واحد أو اثنان أو أكثر»[٢٣].

فهو هنا وبحس صوتي جامع مانع: يدرأ الدخيل والمعرّب والمولّد والمحدث والمبتدع عن لغة العرب، ولك ميزة ما بعدها ميزة في هذا الخضم المتلاطم من الكلمات واللغى.

قال الليث: قل: فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف؟ فقال نحو:

(الكشعثج والخضعثج والكشعطج وأشباههن) فهذه مولدات لا تجوز في كلام

العرب، لأنه ليس فيهن شيء من حروف الذلق والشفوية فلا تقبلن منها شيئاً، وإن أشبه لفظهم وتأليفهم، فإن النحارير منهم ربما أدخلوا على الناس ما ليس في كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت»[٢٤].

وليس جديداً بعد العروض السابقة القول بأن الخليل كان ضليعاً بكل تفصيلات الجهاز الصوتي عند الإنسان، ولا يضيره - إن صح ما يقال - أن لا يذكر الوترين الصوتيين، لأنه ليس عالماً بالتشريح، ولا متخصصاً بجراحة الحنجرة، وما اضطلع بمهمة طبية قط، وما ذكره من أجزاء هذا الجهاز فيه الكفاية لعصره إن لم نقل للعصور كافة، لأنه قد تضمن بكثير من الأبعاد الإشارة لهذه المباحث التي تفرغ لها الأروبيون.

قال جملة من الأساتيذ:

»إن أحسن ما عرض له العرب في دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف الجهاز الصوتي، وهو الحلق والفم إلى الشفتين، وتقسيمه إياه إلى مناطق ومدارج يختص كل منها بحرف أو مجموعة حروف، وما أشار إليه من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج، فقد هدي بذكائه المتفوق في ذلك إلى مقاييس صحيحة أقرّ كثيراً منها علماء الأصوات المحدثون«[٢٥].

لقد أهتم علماء الأصوات المحدثون بوصف الجهاز الصوتي، وبيان وظيفته في تفصيل دقيق استعانوا على تحقيقه بعلم الصوت الفسلجي، فأعطوا ثمرات جيدة ومفيدة، ولكنها لا تختلف إلا قليلاً عن معطيات قدماء العرب، ولقد اقتصر العالم اللغوي دي سوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣م) أبرز لغوي أروبي في العصر الحديث، اقتصر في وصفه لجهاز الصوت على تجويف الأنف، وتجويف الفم، الحنجرة بما في ذلك فتحة لسان المزمار الواقعة بين الوترين الصوتيين، وكانت المفردات التي أخضعها للدراسة عبارة عن الشفتين، واللسان، والأسنان العليا، والحنك، واللهاة.

يقول دي سوسير: «إن فتحة لسان المزمار تتألف من عضلتين موازيتين، أو حبلين صوتيين، تفتح كلما ابتعدت العضلتان، بعضهما عن بعض، وتغلق عندما تقتربان، وعندما تتسع الفتحة تسمح بدخول الهواء بحرية كاملة فلا يحدث أي تذبذب في الوترين الصوتيين. في حين يحدث مثل هذا التذبذب (الصوت) عندما تكون الفتحة ضيّقة. وليس لهذه العملية في إخراج الأصوات بديل عادة. إن التجويف الأنفي عضو غير متحرك، ولا يمكن إيقاف تدفق الهواء فيه إلا برفع اللهاة. فهو عبارة عن باب مفتوح أحياناً.

أما تجويف الفم، فالاحتمالات التي يوفرها أكثر: إذ يمكن استخدام الشفتين لزيادة طول القناة (تجويف الفم) كما يمكن دفع الفكين إلى الخارج أو تقليصهما نحو الداخل. وللشفتين واللسان حركات كثيرة مختلفة يمكن استخدامها، ويتناسب دور هذه الأعضاء في إخراج الأصوات تناسباً طردياً مع مرونة حركتها، فالحنجرة والتجويف الأنفي ثابتان،

لهما وظيفة ثابتة... ويستطيع المرء أن يخرج صوتاً حنجرياً بشد الوترين الصوتيين، ولكن الحنجرة لا تستطيع أن تخرج أصواتاً متنوعة. . أما القناة الأنفية فليس لها من وظيفة في النطق سوى إحداث رنين للذبذبات الصوتية . . . وعلى العكس من ذلك يسهم تجويف الفم في إخراج الأصوات وإحداث الرنين.

وموجز القول: إن العناصر التي تسهم في إخراج الأصوات هي:

الهواء إلى الخارج، والنطق في الفم، وتذبذب في منطقة الحنجرة، والرنين الأنفي[٢٦].

إذن: إندفاع الهواء من الرئتين + النطق في الفم + التّصويت في الحنجرة + الرنين في الأنف = إحداث الأصوات.

بهذا أعطى دي سوسير تفصيلاً مكثفاً لإحداث الأصوات وتوليدها من أجهزتها، ولكن هذا التفصيل لم يكن ليتأتى له لولا تطور الدراسات الصوتية فسلجياً وفيزيائياً وتشريحياً، أما الخليل فقد اهتدى لذلك فطرياً على وجه العموم، واكتشف ولأول مرة كل التفصيلات الصحيحة لجهاز النطق وإحداث الصوت بذهنيته الوقادة دون الاستعانة بأي علم يتسع لمثل إبداعاته الصوتية في بيئته البدوية.

ولم يكن فهم الخليل لأبعاد إحداث الأصوات بمنأى عن الفهم عند دي سوسير، بل لقد زاد عليه - كما عرفت سابقاً - في كثير من الخصوصيات الانطلاقية لهذه الأجزاء - التي قد تعتبر أولية في مدرسته الصوتية - تنم عن إدراك متكامل للموضوع، وتمرس عميق في قضايا صوتية معقدة.

* * *

سيبويه ومنهجه الصوتي:

نجد من جانب آخر جهداً طيباً بذله تلميذ الخليل ألا وهو سيبويه (ت: ١٨٠هـ) رحمهما الله تعالى، في كتابه الكتاب وعقد باباً مستقلاً في آخر الجزء الرابع من كتابه، وتناول فيه جميع ما يتعلق بأصوات اللغة العربية، ولو تركنا الخليل ذاته إلى من تأثر بمدرسته لوجدنا جهوداً صوتية متناثرة، تستند في أغلبها إلى مبتكرات الخليل، توافقه حيناً، وتخالفه حيناً آخر. فأعضاء النطق مثلاً عند الخليل وعند سيبويه واحدة، والحروف في مدارجها، ويعني بها الأصوات تبعاً للخليل، تبدأ بأقصى الحلق، وتنتهي بالشفتين، فهي عند سيبويه كما هي عند الخليل[٢٧].

ولكن ترتيب الحروف في كتاب سيبويه تخالف ترتيب الخليل، فحينما وضع الخليل الأبجدية الصوتية للمعجم العربي مبتكراً لها، خالفه سيبويه في ترتيب تلك الأصوات، إذ بدأ بالهمزة والألف والهاء، وقدّم الغين على الخاء، وأخر القاف عن الكاف وهكذا . . .

يتضح هذا من ترتيبه للحروف على هذا النحو:

همزة . ا . هـ.

ع . ح . غ . خ.

ك . ق.

ض . ج . ش.

ي . ل . ر.

ن . ط . د.

ت . ص.

ز . س . ظ.

ذ . ث . ف.

ب . م . و[٢٨].

وهذا وإن كان خلافاً جوهرياً في ترتيب مخارج الأصوات، إلا أنه لا يعني أكثر من العملية الاجتهادية في الموضوع دون الخروج عن الأصل عند الخليل. «كذلك نلاحظ اختلافاً واحداً في ترتيب المجموعات الصوتية بالنظر إلى تقدمها وتأخرها، فقد جاءت حروف الصفير في كتاب العين بعد الضاد، وهو حرف حافة اللسان، والذي عند سيبويه بعد الضاد: حروف الذلاقة. ونتيجة لتقديم حروف الصفير، فقد وضع مكانها حروف الذلاقة، ومعنى ذلك أنه في العين حدث تبادل بين حروف الصفير وحروف الذلاقة»[٢٩].

إن الاختلاف من هذا القبيل لا يعدو وجهة النظر الصوتية المختلفة، ولكنه لا يمانع أن تكون آراء سيبويه في الكتاب امتداداً طبيعياً لمدرسة الخليل، نعم لا ينكر أن لسيبويه ابتكارته المقررة، فنحن لا نبخس حقه، ولا نجحد أهميته في منهجة البحث الصوتي، فقد كان له فضل بذلك لا ينكر، فتصنيفه لصفات الأصوات في الجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط، وكشفه لملامح الإطباق واللين، وتمييزه لمظاهر الاستطالة والمد والتفشي، كل أولئك مما يتوّج صوتيته بالأصالة.

ولقد ظل تقسيم سيبويه للأصوات إلى مجهورة ومهموسة من جهة، وإلى شديدة ورخوة من جهة أخرى، وعلى أي أساس قام هذا التقسيم وذلك التصنيف؟ لغزا محيراً عنَّ القدماء والمحدثون في التعرف عليه، والوقوف على كنه وإبانته. وهذا دليل على حذق سيبويه طول الباع عنده في المعرفة اللغوية عامة والصوتية على وجه الخصوص، والدقة في التصوير الواقع اللغوي ووضع القواعد له. ثم هذا التقسيم الدقيق إلى الجهر والهمس والشدة والرخوة أساس مبني على خروج الهواء الخارج من الرئتين لإنتاج الحرف والنطق به لا يُمنح صفة التصويت ولا يسمى صوتاً إلا عند ما يصل إلى مخرج الحرف، وموضعه ويحصل اعتماد عليه هناك، إذ مخرج الحرف هو موضع تكون الصوت وانتاجه وفيه تبرز معالمه ومنه ينطلق، أما قبل وصول هذا الهواء إلى نقطة النطق بالحرف فهو نفس مجرد، ولا يسمى صوتا وإنما نفساً، ومن ثم فإن ذلك الهواء المنطلق إذا مُنع فيما قبل مخرج الحرف، أو نقطة النطق به فإن ذلك المنع يكون منعاً للنفس، وإذا جرى يكون جرياً للنفس، أما إذا مُنع ذلك الهواء في مخرج الحرف فإنه يكون منعاً للصوت، إذ قد تحول بالفعل ذلك النفس إلى صوت وبعبارة أدق مخرج الحرف نقطة تحوله إلى صوت. أما إذا جرى فإنه يكون جرياً للصوت.

وهكذا جعل سيبويه علامة المجهور منع النفس، وعلامة المهموس جرى النفس، وجعل علامة الشديد منع الصوت، وعلامة الرخو

جري الصوت ومعنى هذا كما يقتضيه المقياس والأساس السابق ذكره أن الحروف المجهورة يمنع معها الهواء المنطلق لانتاجها قبل وصوله إلى مخرجهاونقطة النطق بها، وإن الحروف المهموسة لا يمنع معها ذلك الهواء قبل وصوله إلى مخارجها. وهذا بعض لمسات تثبت مهارة سيبويه في مجال دراسة الأصوات.

وكذلك لسيبويه قدم سبق مشهود له في قضايا الإدغام، وهي معالم صوتية في الصميم، فقد قدم لها بدراسة علم الأصوات، كما قدم الخليل معجمه بعلم الأصوات، فالخليل قد ربط بين اللغة والصوت، وسيبويه قد ربط بين قضايا الصوت نفسها، لأن الإدغام قضية صوتية «ونحن نقرر هنا مطمئنين أن سيبويه قد وضع قواعد هذا البحث وأحكامه لا لفترة معينة من الزمن، بل يكاد يكون ذلك نهائياً، وكان تصرفه فيها تصرفاً رائعاً، صادراً عن عبقرية سبقت الزمن، فلم يكن ممن جاء بعده من العلماء والباحثين إلا أن اتبعوا نهجه، واكتفوا بما قال، ولم يزيدوا بعد سيبويه على ما قال حرفاً، بل أخذوا يرددون عباراته مع كتبهم، ويصرحون بأنهم إنما يتبعون مذهبه، سواء في ذلك علماء النحو وعلماء القراءة»[٣٠].

وقد يكون في هذا الحكم مبالغة، ولكنه مقارب للحقيقة في كثير من أبعاده، إذ كان سبّاقاً إلى الموضوع بحق.

ومما يجلب الانتباة حقاً عند سيبويه في صفات الحروف ومخارجها، هو تمييزه الدقيق بين صفة الجهر وصفة الهمس فيما أشرنا له في الصفحات السابقة فمصدر الصوت المجهور يشترك فيه الصدر والفم، ومصدر الصوت المهموس من الفم وحده، وبمعنى آخر أن للرئتين عملاً ما في صفة الجهر، بينما ينفرد الفم بصفة الهمس[٣١].

فتعريف المجهور عنده: «حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت. بينما المهموس: حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»[٣٢].

وهو يعبر بالموضع هنا عن المخرج فيما يبدو، ويجري الصوت عن الشيء الإضافي في حالة الجهر عن حالة الهمس التي يجري النفس معها لا الصوت. «وقد ظلت محاولة سيبويه تفسير المجهور والمهموس من الأصوات قانوناً سار عليه جميع من جاء بعده من النحاة والقراء. إلى أن جاءت بحوث المحدثين فصدقت كثيراً مما قاله في هذا الباب»[٣٣].

ومن المفيد الرجوع إلى ما فسره في هذا المجال أستاذنا المرحوم الدكتور ابراهيم أنيس فقد أشبعها بحثاً وتنويراً[٣٤].

ولا يمكن في منظورنا أن تفصل سيبويه عن مدرسة الخليل في اللغة والأصوات، فهو الممثل الحقيقي لها فيما نقل لنا من علم الخليل في الكتاب، وتبقى مدرسة الخليل الصوتية مناراً يستضاء به في كثير من الأبعاد لمن جاء بعده. فابن دريد (ت: ٣٢١هـ) مثلاً، يذكر في مقدمة

الجمهرة إفاضات الخليل بعامة، ويضيف إليها بعض الإشارات في ائتلاف الحروف والأصوات، ولكن هذا بالطبع لا يخرجه عن إطار هذه المدرسة في كل الأحوال، فلديه على سبيل المثال جملة كبيرة من التسميات المتوافقة مع الخليل كالأصوات الرخوة، والأصوات المطبقة، والأصوات الشديدة. كما أن له بعض الاجتهادات الصوتية في أكثر الحروف وروداً في الاستعمال، فأكثرها الواو والياء والهاء، وأقلها الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم[٣٥].

ولا تعلم صحة هذا الاجتهاد إلا بالإحصاء. وليس كثيراً على ابن دريد الإحصاء والاستقصاء.

وبعد مدرسة الخليل نجد ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) مؤصل هذا الفن ومبرمجه، وأول مضيف له إضافات مهمة ذات قيمة منهجية في الدراسات الصوتية، بما تواضعنا على تسميته بـ (الفكر الصوتي عند ابن جني) أو أن جهود ابن جني في الأصوات ارتفعت إلى مستوى الفكر المخطط والممنهج، فأفردناه ببحث خاص، إذ انتهل من هذا الفكر رواد هذا الفن كما سنرى.

ابن جني والدرس الصوتي:

نهض ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) بأعباء الصوت اللغوي بما يصح أن نطلق عليه اسم الفكر الصوتي، إذ تجاوز مرحلة البناء والتأسيس إلى مرحلة التأصيل والنظرية، فقد تمحض لقضية الأصوات في كتابه (سر صناعة الإعراب) مما جعله في عداد المبدعين، وخطط لموضوعات الصوت مما اعتبر فيه من المؤصلين، ونحن الآن بأزاء بيان المبادىء العامة لفكره الصوتي دون الدخول في جزئيات الموضوع.

ويجدر بنا في بداية ذلك أن ننتبه لملحظين مهمين ونحن نستعرض هذا الفكر في سر صناعة الاعراب:[٣٦].

أ - إن ابن جني كان أول من استعمل مصطلحاً لغوياً للدلالة على هذا العلم مازلنا نستعمله حتى الآن وهو « علم الأصوات».

ب - إن ابن جني يعدّ الرائد في هذه المدرسة، وكان على حق في قوله في كتابه: «وما علمت أن أحدا من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض، ولا أشبعه هذا الإشباع...[٣٧]»

وبدءاً من المقدمة يعطيك ابن جني منهجه الصوتي، لتقرأ فيه فكره، وتتلمس فلسفته، وتتثبت من وجهته، فيذكر أحوال الأصوات في حروف المعجم العربي (من مخارجها ومدارجها، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها، وصحيحها ومعتلها، ومطبقها ومنفتحها، وساكنها ومتحركها، ومضغوطها ومهتوتها، ومنحرفها ومشرّبها، ومستويها ومكررها، ومستعليها ومنخفضها، إلى غير ذلك من أجناسها»[٣٨].

وابن جني في هذا الاسترسال السلس يعطينا مهمة الفكر الصوتي في تحقيق المصطلحات

بعامة عن طريق تشخيص المسميات التي أسماها، وإن سبق إلى بعضها عند الخليل وسيبويه وهو لا يكتفي بهذا القدر حتى يبحث الفروق، ويعين المميزات ويذكر الخصائص لكل حرف من هذه الأصناف، ويفرق بينها وبين الحركات، مع لوازم البحث ومقتضياته، إلماماً بجميع الجوانب، وتتقيباً عن كل النوادر المتعلقة بهذه الأبواب فيقول:

«وأذكر فوق مابين الحرف والحركة، وأين محل الحركة من الحرف: هل هي قبله أو معه أو بعده؟ وأذكر أيضاً الحروف التي هي فروع مستحسنة، والحروف التي هي فروع مستقبحة، والحركات التي هي فروع متولدة عن الحركات، كتفرع الحروف من الحروف. وأذكر أيضاً ما كان من الحروف في حال سكونه له مخرج ما، فإذا حرك أقلقته الحركة، وأزالته عن محله في حال سكونه، وأذكر أيضاً أحوال هذه الحروف في أشكالها، والغرض في وضع واضعها، وكيف ألفاظها ما دامت أصواتاً مقطعة، ثم كيف ألفاظها إذا صارت أسماء معرفة، ما الذي يتوالى فيه إعلالان بعد نقله، مما يبقى بعد ذلك من الصحة على قديم حاله، وما يمكن تركبه ومجاورته من هذه الحروف وما لا يمكن ذلك فيه، وما يحسن وما يقبح فيه مما ذكرنا، ثم أفرد - فيما بعد - لكل حرف منها باباً أغترف فيه ذكر أحواله وتصرفه في الكلام من أصليته وزيادته، وصحته وعلته، وقلبه إلى غيره، وقلب غيره إليه»[٣٩].

إن هذا المنهج يكشف عن عمق الفكر الصوتي عند ابن جني إذ يعرض فيه عصارة تجاربه الصوتية دقيقة منظّمة، ويتفرغ لبحث أصعب المشكلات الصوتية بترتيب حصيف يتنقل فيه من الأدنى إلى الأعلى، ومن البسيط إلى المركب حتى إذا تكاملت الصورة لديه، بدأ بالبحث المركز، فلا ترى حشوة ولا نبوة، ولا تشاهد تكرارا أو اجتراراً، فأنت بين يدي مناخ جديد مبوب بأفضل ما يراد من التصنيف والتأليف، فلا تكاد تستظهر علما مما أفاض حتى يلاحقك علم مثله كالسيل اندفاعاً، ولعل أبرز ما تعقبه في سر صناعة الاعراب لصوقا بجوهر الصوت الخالص البحوث الآتية:

١ - فرق ما بين الصوت والحرف.

٢ - ذوق أصوات الحروف.

٣ - تشبيه الحلق بآلات الموسيقى (المزمار، العود).

٤ - اشتقاق الصوت والحرف.

٥ - الحركات أبعاض حروف المد.

٦ - العلل وعلاقتها بالأصوات.

٧ - مصطلحات الأصوات العشرة التي ذكرها آنفاً مع ما يقابلها.

٨ - حروف الذلاقة والأصمات.

٩ - حسن تأليف الكلمة من الحروف فيما يتعلق بالفصاحة في اللفظ المفرد، وتأصيل ذلك على أساس المخارج المتباعدة.

١٠ - خصائص كل صوت من حروف المعجم، وحيثياته، وجزئياته كافة، بمباحث متخصصة لم يسبق إليها في أغلبها، فهي

طراز خاص في المنهج والعرض والتبويت.

ولو أضفنا إلى مباحث (سر صناعة الإعراب) جملة من مباحثه في جهوده الأخرى لا سيما في كتاب (الخصائص) لتوصلنا من ضم بعضها لبعض إلى مجموعة مفضلة من مباحث الصوت اللغوي يمكن رصدها وتصنيفها على النحو الآتي:

١ - الصوامت من الحروف والصوائت.

٢ - علاقة اللهجات بالأصوات.

٣ - علاقة الإعراب بالأصوات.

٤ - التقديم والتأخير في حروف الكلمات وتأثيرهما على الصوت.

٥ - علاقة الأفعال بالأصوات.

٦ - الإعلال والإبدال والإدغام وأثرها في الأصوات.

٧ - الأصوات وعلاقتها بالمعاني.

٨ - زيادة المبنى الصوتي وأثره في المعنى.

ويبدو لي أن هذه هي أهم الأصول العامة لمباحث الصوت اللغوي عند ابن جني في كتابيه، والتوسع في كل أصل يقتضي بحثاً متكاملاً في كل مقوماته، وبذلك يتوصل إلى فكره الصوتي، في العرض والأسلوب والنتائج، والسبيل ميسرة أمام الباحثين، ولا بد لنا من الإشارة لملامح هذا الفكر في نقاط، لأننا لسنا بأزاء تتبعه، بل بأزاء القربة إليه لرصد مميزاته ومنهجه في المعالجة والإفاضة والتصنيف.

أولاً: لقد تتبع ابن جني الحروف في المخارج، ورتبها ونظمها على مقاطع مستفيداً بما ابتكره الخليل، إلا أنه كان مخالفاً له في الترتيب، وموافقاً لسيبويه في الأغلب إلا في مقام تقديم الهاء على الألف، وتسلسل حروف الصفير[٤٠].

ويرجح الدكتور حسام النعيمي أن تقدم الهاء على الألف في كتاب سيبويه من عمل النسّاخ، لأن ابن جني - وهو أقرب إلى عصر سيبويه من النسّاخ المتأخرين - قد نصّ على أن الألف مقدمة على الهاء عند سيبويه، وإن حروف الصفير وهي (الزاي، السنين، الصاد) من مخرج واحد فلا يتقدم أحدها على الآخر، فلم يبال بالتقديم والتأخير بينها لذلك[٤١].

وهكذا كان ترتيب الحروف عند ابن جني على ترتيب المخارج: الهمزة، الألف، الهاء، العين، الحاء، الغين، الخاء، القاف، الكاف، الجيم، الشين، الياء، الضاد، اللام، الراء، النون، الطاء، الدال، التاء، الصاد، الزاي، السين، الظاء، الذال، الثاء، الفاء، الباء، الميم، والواو.[٤٢]

وهذا الترتيب مخالف للخليل، وفيه بعض المخالفة لسيبويه في ترتيبه كما يظهر هذا لدى المقارنة في جدولة الترتيبين كما سبق.

وابن جني لا يخفي هذا الخلاف بل ينص عليه، ويذهب إلى صحة رأيه دونهما فيقول: «فهذا ترتيب الحروف على مذاقها وتصعدها، وهو الصحيح، فأما ترتيبها في كتاب

العين ففيه خطل واضطراب، ومخالفة لما قدمناه آنفاً محاربته سيبويه، وتلاه أصحابه عليه، وهو الصواب الذي يشهد التأمل له بصحته»[٤٣].

ثانياً : ويضيف ابن جني إتماماً لنظريته في الأصوات: ستة أحرف مستحسنة على حروف المعجم العربي، وثمانية أحرف فرعية مستقبحة، ولا يصح ذلك عنده إلا بالسمع والمشافهة، حتى تكون حروف المعجم مع الحروف الفرعية المستحسنة خمسة وثلاثين حرفاً، وهما مع الحروف الفرعية المستقبحة ثلاثة وأربعون حرفاً.

ولا معنى لهذه الإضافات من قبله لو لم يكن معنياً بالصوت، فحروف العربية تسعة وعشرون حرفاً، لا شك في هذا، ولكن الحروف المستقبحة والمستحسنة التي أضافها، وإن لم يكن لها وجود في المعجم العربي، إلا أن لها أصواتاً في الخارج عند السامعين، وهو إنما يبحث في الأصوات فأثبتها، فعادت الأصوات في العربية عنده ثلاثة وأربعين صوتاً، وهو إحصاء دقيق، وكشف جديد، وتثبيت بارع.

وقد ذهب ابن جني في هذه الحروف مذهباً فنياً تدل عليه قرائن الأحوال، فهو يعطي استعمالها في مواطنه، وتشخيصها في مواضعه، فالحروف المستحسنة عنده، يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام، وهي:

«النون الخفيفة، والهمزة المخففة، وألف التفخيم، وألف الإمالة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي . . . والحروف الفرعية المستقبحة، هي فروع غير مستحسنة، لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة، غير متقبلة. وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالميم»[٤٤].

ثالثاً : ويحصر ابن جني مخارج الحروف في ستة عشر مخرجاً، ناظراً إلى موقعها في أجهزة النطق، ومنطلقاً معها في صوتيتها، ويسير ذلك بكل ضبط ودقة وأناقة، فيقول:

«واعلم أن مخارج هذه الحروف ستة عشر، ثلاثة منها في الحلق:

١ - فأولها من أسفله وأقصاه، مخرج الهمزة والألف والهاء.

٢ - ومن وسط الحلق: مخرج العين والحاء.

٣ - ومما فوق ذلك من أول الفم: مخرج الغين والخاء.

٤ - ومما فوق ذلك من أقصى اللسان: مخرج القاف.

٥ - ومن أسفل من ذلك وأدنى إلى مقدم الفم: مخرج الكاف.

٦ - ومن وسط اللسان، بينه وبين وسط الحنك الأعلى: مخرج الجيم والشين والياء.

٧ - ومن أول حافة اللسان وما يليها: مخرج الضاد.

٨ - ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى

طرف اللسان، من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية: مخرج اللام.

٩ - ومن طرف اللسان بينه وبين مافويق الثنايا: مخرج النون.

١٠ - ومن مخرج النون، غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام: مخرج الراء.

١١ - ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا: مخرج الطاء والدال والتاء.

١٢ - ومما بين الثنايا وطرف اللسان: مخرج الصاد والزاي والسين.

١٣ - مما بين اللسان وأطراف الثنايا: مخرج الظاء والذال والثاء.

١٤ - ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى: مخرج الفاء.

١٥ - وما بين الشفتين، مخرج الباء والميم والواو.

١٦ - ومن الخياشيم، مخرج النون الخفيفة، ويقال الخفيفة أي: الساكنة، فذالك ستة عشر مخرجا»[٤٥].

وحينما يتابع ابن جني مسيرته الصوتية في مخارج هذه الحروف، نجده متمحضاً لها في دقة متناهية بما نعتبره أساساً لما تواضع عليه الأروبيون باسم الفونولوجي phonology أي «التشكيل الأصواتي» أو هو النظام الصوتي في تسمية دي سوسير له وهو ما نميل إليه[٤٦].

ومن خلال هذا النظام نضع أيدينا على عدة ظواهر صوتية متميزة في المنهج الصوتي عند ابن جني كشفنا عنها بصورة أولية في عمل أصواتي مستقل سبقت تغطيته[٤٧].

وهنا نحاول فلسفتها بصورة متكاملة مقارنة بظروفها المماثلة في الفكر الصوتي الإنساني، فيما حقق من نظام أصواتي حديث لا يختلف كثيراً عما أبداه ابن جني في الظواهر الآتية:

أولاً: مصدر الصوت ومصطلح المقطع:

يتحدث ابن جني عن مصدر الصوت، وكيفية حدوثه، وطريق خروجه، وعوامل تقاطعه، واختلاف جرسه بحسب اختلاف مقاطعه، وبذلك يعطينا الفروق المميزة بين الأصوات والحروف فيقول:

«إعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً، وتختلف أجراس الحروف بحسب مقاطعها، وإذا تفطنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك، ألا ترى أنك تبتدىء الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرساً ما، فإن انتقلت عنه راجعاً منه أو متجاوزاً له ثم قطعت، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول، وذلك نحو الكاف، فإنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جزت إلى الجيم سمعت غير ذينك الأولين. . .[٤٨]

هذا العرض في إحداث الصوت كشف لنا

عن مصطلح حديث عند الأروبيين هو المقطع، وأقف عنده لما استقطبه هذا الاصطلاح الذي سيره «ابن جني» من مناقشات وممارسات أصواتية متميزة، كان هو الأساس فيها في الدلالة الدقيقة على المعنى المراد دون غيره عند الأصواتيين العالميين.

الأصوات عادة تتجمع في وحدات، تكون تلك الوحدات أكبر من الأصوات بالضرورة، لأنها أطول مسافة صوتية، فتشكل في أكثر من صوت وحدة صوتية معينة، وأهم هذه الوحدات هو المقطع الذي تذوقه ابن جني، فرأى فيه ما يثني الكلام عن استطالته وامتداده تارة، وما تحس به صدى عند تغير الحرف غير الصدى الأول تارة أخرى.

والتعريف البسيط للمقطع هو «تأليف أصواتي بسيط، تتكون منه واحداً أو أكثر كلمات اللغة، متفق مع إيقاع التنفس الطبيعي، ومع نظام اللغة في صوغ مفرداتها»[٤٩].

وقد جرى تأليف المقطع العربي على البدء بحرف صامت، ويثنى بحركة، ولا يبدأ بحركة إطلاقاً خلافاً للغات الأروبية.

ومن المبادىء الأساسية أن اللغة العربية تبدأ كلماتها بمتحرك واحد، وتختمها إما بحركة، فهو المقطع المفتوح. وإما بصامت، فهو المقطع المقفل. ومن غير الممكن في العربية أن تبدأ الكلمة بمجموعة من الصوامت، أو أن يتخلل الكلمة أكثر من صامتين متجاورين، أو أن تختم الكلمة بمجموعة من الأصوات الصامتة[٥٠].

إذن: حرف صامت + حركة = مقطع، وهذا هو المقطع القصير، وقد يضاف إلى هذا حرف صامت، أو حركة أخرى، فيكون المقطع طويلاً، لأنه تجاوزالحد الأدنى من التكوين، وهو الحرف والحركة، وتخطاهما إلى ثالث، حركة كان هذا الثالث أم حرفاً.

والعربية عادة تتكون الغالبية العظمى من كلماتها من ثلاثة مقاطع في المادة دون اشتقاقها، ففي الثلاثي خذ كلمة: «ذَهَب» في ثلاثة مقاطع هي: ذَ، هَـ، بَ، وكل مقطع هنا مكوّن من حرف وحركة كما ترى.

قال ابن جني، مستفيداً بما قدمه الخليل[٥١]: «إن الأصول ثلاثة: ثلاثي رباعي وخماسي، فأكثرها استعمالاً، وأعدلها تركيباً الثلاثي، وذلك لأنه: حرف يبتدأ به، وحرف يحشى به، وحرف يوقف عليه. وليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه حسب، لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه لأنه أقل حروفاً. . . فتمكن الثلاثي إنما هو لقلة حروفه لعمري، ولشيء آخر هو حجز الحشو الذي هو عينه بين فائه ولامه، وذلك لتعادي حاليهما. ألا ترى أن المبتدأ لا يكون إلا متحركاً وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكناً، فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزاً بينهما لئلا يفجأوا والحسّ بضد ما كان آخذاً فيه»[٥٢].

لقد أدرك الأصواتيون العرب هذا التخطيط المقطعي من ذي قبل فأكدوا عليه حتى في تقطيع الوزن العروضي للشعر عند الخليل في حدود، وهو ما أثبته ابن جني في برمجيته للمقاطع في تفصيله.

ولقد أفاد الأروبيون من هذا الملحظ إفادة تامة، فقد كان المقطع ـ تبعاً للتفكير التقليدي عند الغربيين ـ يتكون من حركة تعتبر دعامة أو نواة، يحوطها بعض الصوامت consonnes وعليه بني اسم consonne أي الذي يصوّت مع شيء آخر، وهو الذي لا يصوت وحده، وأطلق على الحركات اسم مصوتات sonnetes لأنها قادرة على التصويت دون الاعتماد على شيء آخر، ومن هنا كان المفهوم الوظيفي للمقطع، كما جاءت أفكار الحركات والصوامت[٥٣].

وهو نفسه ما تحدث عنه ابن جني، وهو الواقع في الفكر الصوتي عند العرب فالحرف لا ينطق وحده فيشكل صوتاً، إلا بانضمام الحركة إليه، فيتكون بذلك المقطع الصالح للتصويت.

ويرى أتوجسبرسن otto Jespersen: أن الوحدات الأصواتية تتجمع حول الوحدة الأكثر إسماعاً، بحسب درجة الوضوح السمعي، والمقطع طبقاً لرأيه هو المسافة بين حدين أدنيين من الوضوح السمعي.

إن نظرية جسبرسن من بين ما ارتضاه عالم الأصوات الانجليزي دانيال جونز، فهي وصف جيد للمقطع المثالي، ولكنها لا تقول شيئاً لنا عما هو جوهري في المقطع، ولا تقول لنا: أين الحد بين المقاطع، وهو ما يطلق عليه الحد المقطعي[٥٤].

حقاً لقد كان البنيوي السويسري فرديناند دي سوسير أقرب إلى الفكر العربي في تصوره لحدود المقطع الصوتي على أساس درجة الانفتاح في الأصوات، إذ تتجمع الصوامت حول الحركات تبعاً لدرجة الانفتاح، فالحد المقطعي يوجد ويتوافر حين يكون التنقل من صوت أكثر انغلاقاً إلى صوت أكثر انفتاحاً[٥٥].

إن هذا التوصل إلى حدود المقطع وتعريفاته عند الأروبيين هو الذي ذهب إليه ابن جني، وأضاف إليه ذائقة كل مقطع، قال: «وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحروف أن تأتي به ساكناً لا متحركاً، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره، وتجتذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به، فتقول: اك. اق. اج؛ وكذلك سائر الحروف، إلا أن بعض الحروف أشد حصراً للصوت من بعضها»[٥٦].

وهذا ما نعتبره ابتكاراً لم يسبق إليه، إلا فيما عند الخليل في ذواقة للأصوات: اب، ات، اع، اغ[٥٧].

فإنها مقاطع طويلة مقفلة تكونت من ثلاثة عناصر في كل منها هي الألف والكسرة والحرف: ب، ت، ع، غ .

والمدهش حقاً عند ابن جني أن يهتدي إلى سر المقطع من خلال تصريفه لشؤون الحركات، فهو يعتبر الحركة صوتياً تتبع الحرف، فتجد بهما الصوت يتبع الحرف «وإنما هذا الصويت التابع لهذه الحروف ونحوها ما وقف عليها، لأنك لا تنوي الأخذ في حرف غيرها، فيتمكن الصويت فيظهر؛ فإنما

إذا وصلت هذه الحروف ونحوها فإنك لا تحس معها شيئاً من الصوت كما تجده معها إذا وقف عليها»[٥٨].

ثانياً: جهاز الصوت المتحرك:

يتحدث ابن جني عن جهاز الصوت المتحرك أو المتنقل، أو مجموعة الأجهزة الصوتية في الحلق والفم، وسماعنا تلك الأصوات المختلفة، وذلك عند ذائقته للحرف العربي، ووجدانه الاختلاف في أجراسه، والتباين في أصدائه فشبه الحلق بالمزمار، ووصف مخارج الحروف ومدارجها بفتحات هذا المزمار، وتتوجه عنايه بمجرى الهواء في الفم عند إحداث الأصوات، ويشبهه بمراوحة الزامر أنامله على خروق الناي لسماع الأصوات المتنوعة والمتشعبة بحسب تغييره لوضع أنامله لدى فتحات المزمار، «فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المسنوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل منها صوت لايشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة»[٥٩].

وكذلك تعقيبه على هذا التمثيل في إحداث الصوت بالنسبة لأوضاع أجهزة الصوت، بتشبيهه ذلك بوتر العود، وكيفية ضربه ببعض أصباع اليسرى أو جسة في اليمنى مما يحدث أصواتاً مختلفة عند تلقي الأذن لذلك فتتذوق من خلال ذلك جوهر الصوت، كما تتذوقه في أصوات الحروف تبعاً للرقة والصلابة في الوتر، وكذلك الحال بالنسبة للوترين الصوتيين في جهاز النطق الصوتي عند الإنسان، يقول:

«ونظير ذلك أيضاً وتر العود، فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتاً، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه، أدى صوتاً آخر، فإن أدناها قليلاً، سمعت غير الإثنين، ثم كذلك كلما أذنى إصبعه من أول الوتر غفلاً غير محصور، تجده بالإضافة إلى ما أداه وهو مضغوط محصور، أملس مهتزاً، ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر صلابته، وضعفه ورخاوته، فالوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة بالمضراب عليه كأول الصوت في أقصى الحلق، جريان الصوت فيه غفلاً غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا»[٦٠].

إن ما أبداه ابن جني من تفصيل تمثيلي دقيق لجهاز النطق عند الإنسان وأثر انطلاق الهواء مضغوطاً وغير مضغوط في إحداث الأصوات مختلفة بحسب إرادة الناطق أو الموصوّت: هو ما تبناه علم الأصوات الفيزيولوجي (physi-ology - phonnetics) في الحديث عن الجهاز التنفسي الذي يقدم الهواء المناسب لتكييف حدوث الأصوات، وعن الحنجرة باعتبارها مفجرة الطاقة الصوتية، وعن التجاويف فوق المزمارية التي تلعب دور عزف الرنين في إنتاج غالبية الضوضاء المستخدمة في الكلام، وعن دور التنفس في

مرحلتي الشهيق والزفير في اتساع القفص الصدري لدى الشهيق، فيدعو الهواء الخارجي بسبب هبوط الحجاب الحاجز، وارتفاع الأضلاع إلى الدخول من فتحتي الأنف أو الفم عبر القصبة الهوائية إلى الرئتين، فتنتج أصواتاً استثنائية مسموعة عند الأطفال، أو في حالتي النشيج والضحك.

أما الزفير فيتشمل على ارتفاع الحجاب الحاجز، وهبوط الأضلاع، ونتيجة لهذا يندفع الهواء بكمية كبيرة من الرئتين، هذا الهواء المندفع بالزفير هو الذي يستخدم في التصويت[٦١].

إن هذا التحليل الحديث في حدوث الأصوات من وجهة نظر علمية أو تشريحية هو الذي أراده ابن جني في عنايته بمجرى الهواء في عملية إحداث الأصوات، ولكن بأسلوب يتجاوز مناخ بيئته إلى البيئات المعاصرة، وتشبيهه لهذا الجهاز بمراوحة الزامر أنامله في خروق الناي لسماع الأصوات لم يعد اليوم تشبيهاً بل عاد تسمية اصطلاحية في علم الأصوات الفيزيولوجي بالنسبة للتصويت، إذ تطلق كلمة المزمار على الفراغ المثلث المحاط بالحبلين الصوتيين «فالمزمار يكون مفتوحاً في التنفس العادي، كما يكون مفتوحاً خلال النطق ببعض الصوامت المهموسة، أما خلال التصويت فإن المزمار يجب أن ينغلق، على طول الخط الوسيط، فإذا بقي الجزء الموجود بين الغضروفين الهرميين مفتوحاً، بحيث يسمح للهواء بالمرور سمعنا صوتاً مستسراً هو صوت الوشوشة، وإذا كان الإئتلاف كاملاً كان المزمار في وضع الاستعداد للتذبذب. . . ومن الممكن أيضاً أن نقصر التذبذب على جزء من الحبل الصوتي، وبذلك نختصر طول الجسم المتذبذب، وهو ما يعطينا نغمة أكثر حدة. هذه المعطيات الفيزيولوجية تتفق اتفاقاً كاملاً مع القوانين الفيزيقية التي تحكم التردد الخاص باسم التذبذب»[٦٢].

أستطيع القول من خلال النص المتقدم دون مبالغة أو تردد: إن هذا النص يكاد أن يكون ترجمة عصرية لرأي ابن جني في تشبيهه جهاز الصوت لدى التذبذب في إخراج الأصوات بالمزمار، الذي أصبح اليوم نقطة انطلاق الأصوات باعتباره فراغاً يحاط بالوترين الصوتين، إذ لم يكن هناك بد عند ابن جني من تلمس جهاز ملموس للاستدلال من خلاله على قضية يصعب الاستدلال عليها في عصره دون النظر إلى ذلك الجهاز، أما التشبيه الذي عاد اليوم مظنة لمساحة نطقية قرب الحنجرة، فإنه قد لوّن بصبغة خاضعة لعلم التشريح، وليس عصر ابن جني عصر تشريح، ولا هو بمتخصص فيه مع فرض وجود أوليات الموضوع. لذلك جاءت هذه الترجمة معبرة عن رأيه، أو كاشفة عن تخطيطه تلقائياً، وحاكية لتشبيهه تمثيلياً، والأمر المنتزع من الحس، إذ أقيم عليه الدليل الفعلي، كان مقارباً للأفهام، ومسايراً لحركة التفكير.

لقد كان ابن جني موضوعياً في صفة الجهاز المتنقل في الأصوات مما جعله في عداد المؤسسين.

ثالثاً: أثر المسموعات في تكوين الأصوات:

ويتمرس ابن جني بعض الحقائق الصوتية، ولكنه يعرضها بحذر ويقظة، وقد ينسبها إلى بعض الناس، وما يدرينا فلعلها له لأنه من بعضهم، إلا أن له وجهة نظر قد تمنعه من التصريح بها لأسباب عقيدية، قد لا يسيغها المناخ الاجتماعي في نظره وإن كانت واقعاً.

فهو يتحدث عن صدى الصوت في بداية تكوين اللغة، وأثر المسموعات الصوتية في نشوء الأصوات الإنسانية، وهو ينقل ذلك عن بعضهم، ولكنه يذهب إليه باعتباره مذهباً متقبلاً، ووجهاً صالحاً للتعليل، دعماً لنظريته الصوتية التي يربط بها الأشباه والنظائر، ويحشد لها الدلائل والبراهين، فيقول:

«وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك.

وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل»[٦٣].

فهو يربط بين الأصوات الإنسانية، وبين أصداء الطبيعة حيناً، وأصوات الكائنات الحيوانية حيناً آخر، مما هو من ظوهر الموجودات في الكون، وبين تكوين اللغات التي نشأت من هذه الأصوات في بداياتها الأولى.

«وقد ذهب إلى هذا الرأي معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتني Whitney»[٦٤].

وهذا ما يوقفنا على رأي الأروبيين، وتعليلهم الصوتي في أصل نشوء اللغات؛ وأهمها في نظرنا ما يوافق ابن جني المنقول آنفاً، والقائل بامتداد الصوت عند الإنسان عن الصوت الطبيعي للأشياء، أو الصوت الحيواني غير العاقل، وأن جملة اللغات الإنسانية قد انحدرت من تلك الأصوات.

وهذا لا يمانع أن يكون الله سبحانه وتعالى هو ملهم الأصوات، ومنشىء اللغات، ومعلم الكائنات، فهذا هو الاعتقاد الصحيح الذي لا تشوبه شائبة، فالكلام عن هذا شيء والبحث عن أصل اللغات في انطلاق الأصوات شيء آخر.

على أن هناك رأياً آخر يذهب إلى أن استعمال الإنسان لجهازه الصوتي كان عن طريق التأوهات والشهقات التي صدرت عنه بصورة لا إرادية، وذلك حينما عبر عن آلامه حيناً، وآماله حيناً آخر[٦٥].

رابعاً: فكرة محاكاة الأصوات عند ابن جني:

وقد ذهب ابن جني مذهباً صوتياً فريداً يربط بين الصوت والفعل تارة، وبين الصوت والاسم تارة أخرى، ويبحث علاقة كل منهما بالآخر علاقة حسية ومادية متجسدة، فجرس الألفاظ ووقعها فيما يحدثه من أصوات وأصداء سمعية قد يكون متجانساً ومقارباً لنوعية عنده فيقول:

«فإن كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها، ألا تراهم قالوا: قضم في اليابس، وخضم في الرطب. وذلك لقوة القاف وضعف

الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف»[٦٦].

وتجده يلائم بين الصوت اللغوي وعلاقته بصوت الطائر في الاستطالة والقطع، فالراء مرددة مكررة مستطيلة، وصوت الجندب مثلاً مستطيل، فجعلت له «صرّ» مشددة، وصوت البازي مثلاً متقطع، فقطعت الراء فكانت «صرصر» وذلك ما رآه:

«وكذلك قالوا «صر الجندب» فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته، وقالوا «صرصر البازي» لما هناك من تقطيع صوته»[٦٧].

وفي هذا المجال فإن ابن جني لا يقف عند هذا الحد من النظرية والتطبيق، بل يربط أحياناً بين الأصوات وبين ما سمي به الشيء، نظراً لمشابهته لذلك الصوت المنطلق من التسمية، كالبط لصوته، والواق للصرد لصوته، وغاق للغراب لصوته[٦٨].

وهو بهذا يذهب مذهب من يجد مناسبة ما بين الصوت والمعنى، لا سيما عند البلاغيين في التماس علاقة اللفظ بالمعنى، أو في الدلالة الحسية للفظ بالمعنى، وهو من باب تسمية الشيء باسم صوته، وتلك مقولة صحيحة في جملة من الأبعاد، وحقيقة في كثير من المسميات والتسميات.

وابن جني يؤكّد هذه الحقيقة في المفردات اللغوية، ليعطيها صفة صوتية متمازجة، فالعرب «قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحديث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب، وذلك كقولهم: بحث، فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء لصلحها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث والبث للتراب»[٦٩].

ولا غرابة بعد هذا أن نجد صيغتين من صيغ العربية تدلان على الحدث الصوتي من جانبين:

أ - فعال، وتستعمل في جزء كبير منها للدلالة على الأصوات والضوضاء مثل: صراخ.

ب - فعللة، فإنها تستعمل في العربية في جزء كبير منها للدلالة على حكايات الأصوات مثل:

«الغرغرة» فإن صوتها من جنس تشكيل حروفها لفظياً، وإن معناها صدى من أصداء صوتها.

هذا نفسه هو ما ينجم عن التوليد الصوتي للألفاظ عند الأوروبيين، كما في الكلمة (قهقه) والأصوات فيها دليل من دلائل المعنى، وإذا أضفنا إلى (قهقه) (تمايل) فإننا سنجد في الكلمة الأولى حدث تقليد صوت لصوت آخر، وفي الثانية ترجمت الحركة ترجمة بيانية بوسائل صوتية.

والمصطلح الذي يغلب إطلاقه في حالة الكلمات التي من هذا النوع هو (محاكاة الأصوات Onomatopeid)[٧٠].

هذه جولة قد تكون نافعة فيما أوجده لنا ابن جني من تأصيل صوتي لكثير من الملامح والخصائص والمكتشفات.

ملخص البحث

إن من يقف بالفعل على إسهامات العلماء العرب المسلمين يعلم علماً لا يداخله شك أنهم سبقوا إلى كثير من دقائقه وحقائقه وأرسوا كثيرا من أحكامه وقوانينه، وكانوا بحق من رواده وأساطينه في منهجية البحث الصوتي وقد عرضنا فيه لتأريخية البحث الصوتي في منهجيته العربية المقارنة بالفكر الأروبي الحديث مما توصل معه البحث إلى أصالة المنهجية الصوتية عند العرب بدءاً من:

١ – الخليل بن أحمد الفراهيدي ومدرسته الصوتية، فرأينا الخليل (ت: ١٧٥ هـ) أول من وضع الصوت اللغوي موضع التطبيق الفني في مقدمة العين باعتبارها أول مادة صوتية وصلت إلينا في كتب اللغة، وتتبعنا ذلك في أبرز إفاضات الخليل فوجدناه قد نص على تسمية كل نوع من الأصوات، وقد تذوق الحروف من مخارجها، وحدد كل صنف من أصناف الحروف المعجمية على بنية صوتية متميزة عن سواها، ووضع مخططاً شاملا لمخرج كل صوت انساني مضاف الى حيزه الخاص، وعرض إلى التمايز الصوتي في اللغة، فهو يرى في اللغة امتداداً طبيعياً للأصوات من خلال حصره للمعجم العربي بأبعاد صوتية لم تخطىء ولا مرة واحدة.

٢ – ووجدنا سيبويه (ت: ١٨٠ هـ) قد تأثر بمدرسة الخليل الصوتية فسار على نهجه في كثير من الأبعاد، واجتهد في القسم الآخر، وكان له قدم سبق في قضايا الإدغام، وتمييزه الدقيق بين صفتي الجهر والهمس، ورأينا ابن دريد – وهو امتداد لهما – يصدر في الجمهرة عن علم الخليل ومنهجية سيبويه، ويضيف بعض الإشارات الصوتية في ائتلاف الحروف.

٣ – ووقفنا عند الفكر الصوتي لأبي الفتح عثمان بن جني (ت : ٣٩٢ هـ) باعتباره أول من استعمل مصطلحاً فنياً للدلالة على الأصوات سماه: «علم الأصوات» وكان منهجه الصوتي مثار إعجاب للبحث بما صح أن يطلق عليه اسم الفكر الصوتي، لأنه يتمحّض لهذا العلم، ويعرض فيه عصارة تجاربه الصوتية دقيقة منظّمة، ويتفرغ لبحث أصعب المشكلات الصوتية بترتيب حصيف في بحوث قيّمة عرضت لجوهر الصوت في كتابيه: سر صناعة الاعراب والخصائص.

وكان منهجه يضم تتبع الحروف من مخارجها وترتيبها على مقاطع، وإضافته ستة أحرف مستحسنة بأصواتها إلى حروف المعجم، وثمانية أحرف فرعية مستقبحة بأصواتها، ويحصر مخارج الحروف في ستة عشر مخرجاً تشريحياً منظّراً له بأمثلته، فكان فكر ابن جني الصوتي قد حقق نظاماً أصواتياً قارنّاه بالفكر الصوتي العالمي من خلال هذه الظواهر:

أ – مصدر الصوت ومصطلح المقطع.

ب – جهاز الصوت المتنقل.

جـ – أثر المسموعات في تكوين الأصوات.

د – محاكاة الأصوات.

وكان ما قدمه ابن جني تأصيلاً صوتياً لكثير من الملامح والخصائص المكتشفة في ضوء تقدم العلم الفيزولوجي الحديث.

الهوامش :

١- انظر: مهدي المخزومي: في النحو العربي، قواعد وتطبيق، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٦م: صـ٤.

٢- انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥ هـ) كتاب العين. تحقيق د. مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دارالرشيد، بغداد، ١٩٨٠م:١/١٠.

٣- انظر: الخليل: كتاب العين: ١/٤٧.

٤- انظر: نفس المصدر:١/٤٧.

٥- انظر: السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، ١٩٥٨م: ١/٩٠.

٦- انظر: الخليل، كتاب العين: ١/٤٧.

٧- انظر: محمد حسين علي الصغير: منهج البحث الصوتي عند العرب، مجلة الضاد، الهيئة العليا للعناية باللغة العربية العدد الثالث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م.

٨- انظر: الخليل، كتاب العين: ١/٤٨.

٩- انظر: الخليل، كتاب العين: ١/٥٨.

١٠- انظر: المصدر نفسه: ١/٦٠.

١١- انظر: مقدمة التحقيق لكتاب العين: ١/١٠ .

١٢- انظر: الخليل، كتاب العين:١/٥٣ ـ ٥٧ .

١٣- انظر: كتاب العين: ١/٥٧ ـ ٥٨.

١٤- انظر: سيبويه، أبا بشر، عثمان بن قنبر (ت: ١٨٠ هـ) الكتاب: كتاب سيبويه. تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٧٥م: ٢/٤٠٥.

١٥- انظر: ابن جني: سر صناعة الاعراب. تحقيق مصطفى السقا وجماعته، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٥٤م: ١/٥٠.

١٦- انظر: ابن الجزري، محمد بن محمد الجزري (ت: ٨٣٣ هـ) النشر في القراءات العشر المكتبة التجارية، القاهرة، د. ت: ١/٢١٦.

١٧- انظر: د. عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٧م: صـ ١٦٧ وما بعدها.

١٨- انظر: الخليل، العين: ١/٤٩.

١٩- انظر: مقدمة التحقيق كتاب العين١/١١.

٢٠- انظر: الخليل، العين: ١/٤٩ ـ ٥٠.

٢١- انظر: فردينان دي سوسير لغوي سويسري (١٨٥٧-١٩١٣) علم اللغة العام. ترجمة د. يوئيك، يوسف عزيز، آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م: صـ١٣١ وما بعدها.

٢٢- انظر: الخليل، كتاب العين: ١/٤٧.

٢٣- انظر: الخليل، كتاب العين: ١/٥٢.

٢٤- انظر: المصدر نفسه: ١/٥٢ وما بعدها.

٢٥- انظر: مصطفى السقا وآخرون : مقدمة كتاب : سر صناعة الاعراب مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤م: ١/١٣.

٢٦- انظر: دي سوسير، علم اللغة العام : صـ ٦٠ .

٢٧- انظر: سيبويه، الكتاب: ٢/٤٠٥.

٢٨- انظر: المصدر السابق والصفحة.

٢٩- انظر: د. حسان النعيمي، الدراسات اللهجية الصوتية عند ابن جني دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م: صـ٢٢٩.

٣٠- انظر: عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي : صـ١٩٨.

٣١- انظر: سيبويه، الكتاب: ٢/٢٨٤.

٣٢- انظر: المصدر نفسه: ٢/٤٠٥.

٣٣- انظر: عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: صـ ٢٠٥.

٣٤- انظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية مطبعة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧١م: صـ٩٢ وما بعدها.

٣٥- انظر: ابن دريد، محمد بن الحسن بن دريد (ت: ٣٢ هـ) جمهرة اللغة. أوفسيت عن طبعة حيدر أباد الدكن، ١٣٤٥هـ: ١/٣٠٦.

٣٦- انظر: د. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب منشورات عالم الكتب، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٨٢م: صـ ٩٩.

٣٧- انظر: ابن جني، سر صناعة الاعراب: ١/٦٣.

٣٨- انظر: ابن جني، سرصناعة الإعراب: ٣/١ - ٤.

٣٩- انظر: المصدر نفسه والصفحة.

٤٠- انظر: قارن بين: سيبويه، الكتاب: ٤٠٥/٢، ابن جني، سر الصناعة: ٥٢/١ ـ ٥٣.

٤١- انظر: حسام النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: صـ٣٠١.

٤٢- انظر: ابن جني، سر صناعة الاعراب : ٥٠/١.

٤٣- انظر: المصدر نفسه: ٥٠/١ ـ ٥١

٤٤- انظر: ابن جني، سر صناعة الاعراب: ٥١/١.

٤٥- ٤٥.انظر: ابن جني، سر صناعة الاعراب: ٥٢/١ - ٥٣.

٤٦- انظر: دي سوسور، علم اللغة العام: صـ٥١.

٤٧- انظر: محمد حسين علي الصغير: منهج البحث الصوتي عند العرب، مجلة الضاد، الهيئة العليا للعناية باللغة العربية العدد الثالث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م.

٤٨- انظر: ابن جني، سر صناعة الاعراب: ٦/١.

٤٩- انظر: عبد الصبور شاهين : دراسة علم الأصوات لمالمبرج مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٥م: صـ١٦٤.

٥٠- انظر: عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: صـ ٤٠٩.

٥١- انظر: عبارة الخليل في العين: ٤٩/١.

٥٢- انظر: ابن جني، أبو الفتح، عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢ هـ) الخصائص. تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م: ٥٥/١ ـ ٥٦.

٥٣- انظر: برتيل مالمبرج، العالم الأصواتي الفرنسي علم الأصوات تعريب: د. عبد الصبور شاهين، نشر مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٥م: صـ١٥٥.

٥٤- انظر: المرجع نفسه بتصرف يسير: صـ١٥٧.

٥٥- انظر: دي سوسير، علم اللغة العام: صـ٧٧ وما بعدها.

٥٦- انظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب : ٧/١.

٥٧- انظر: الخليل، العين : ٤٧/١.

٥٨- انظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب: ٧/١.

٥٩- انظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب: ٩/١.

٦٠- انظر: المصدر نفسه: ٩/١ ـ ١٠

٦١- انظر: برثيل مالمبرج، علم الأصوات: صـ٤٣ بتصرف يسير.

٦٢- انظر: المرجع السابق : صـ ٤٧ وما بعدها باختصار.

٦٣- انظر: ابن جني، الخصائص: ٤٦/١ ـ ٤٧.

٦٤- انظر: د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٦٢م: صـ٩٥.

٦٥- انظر: إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م: صـ ٢٠ ـ ٣٥.

٦٦- انظر: ابن جني، الخصائص: ٦٥/١.

٦٧- انظر: المصدر نفسه : ١٦٥/١.

٦٨- انظر: المصدر نفسه ١٦٥/٢.

٦٩- انظر: ابن جنّي، الخصائص: ١٦٢ ـ ١٦٣.

٧٠- انظر: ستيفن أولمان دور الكلمة في اللغة ترجمة: د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٥م: صـ ٧٣ ـ ٧٤ بتصرف يسير.

المصادر والمراجع

١- ابن الجزري، محمد بن محمد الجزري (ت: ٨٣٣ هـ) النشر في القراءات العشر المكتبة التجارية، القاهرة.

٢- ابن جني، أبو الفتح، عثمان بن جني الموصلي (ت : ٣٩٢ هـ) الخصائص. تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م.

٣- ابن جني، سر صناعة الاعراب، تحقيق مصطفى السقا وجماعته، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٥٤م.

٤- ابن دريد، محمد بن الحسن بن دريد (ت : ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة، أوفسيت عن طبعة حيدر أباد الدكن، ١٣٤٥هـ.

٥- د. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مطبعة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧١م.

٦- د. إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

٧- د. أحمد مختار عمر البحث اللغوي عند العرب منشورات عالم الكتب، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٨٢م.

٨- برتيل مالمبرج، العالم الأصواتي الفرنسي علم الأصوات تعريب د. عبد الصبور شاهين، نشر مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٥م.

٩- د. حسان النعيمي، الدراسات اللهجية الصوتية عند ابن جني دار الرشيد، بغداد،١٩٨٠م.

سيبويه، أبو بشر، عثمان بن قنبر (ت :١٨٠هـ) الكتاب: كتاب سيبويه. تحقيق عبدالسلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٠- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥ هـ) كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، دارالرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.

١١- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٢- ستيفن أولمان دور الكلمة في اللغة ترجمة د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٣- طارق عبد عون الجنابي، قضايا صوتية في النحو العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٣٨، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ١٩٨٧م.

١٤- د. عبد الصبور شاهين، دراسة علم الأصوات لمالمبرج مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٥- د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٦٢م.

١٦- فردينان دي سوسير، لغوي سويسري (١٨٥٧-١٩١٣م) علم اللغة العام. ترجمة د. يوئيك، يوسف عزيز، آفاق عربية،بغداد،١٩٨٥م.

١٧- محمد حسين علي الصغير: منهج البحث الصوتي عند العرب، مجلة الضاد، الهيئة العليا للعناية باللغة العربية العدد الثالث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م.

١٨- مصطفى السقا وآخرون: مقدمة كتاب سر صناعة الاعراب مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤م.